البعد الاندماجي للمشاركة

بقلم أ. ر شيد أبو ثور

بين الاندماج والذوبان والمشاركة

يعتبر موضوع الاندماج من القضايا الحساسة والإستراتيجية التي تواجه المسلمين في ديار الغـــرب. فالمـــسلمون يسعون إلى الاندماج المنصف الذي يمنحهم نفس الحقوق التي يتمتع بها باقي المواطنين ، ويخضعهم لنفس الواجبـــات التي على هؤلاء ، لكنهم يرفضون الذوبان الذي يضطرهم إلى التخلي عن جوهر معتقداتهم وخصوصياتهم الثقافيـــة ، مقابل الحصول على بعض من حقوق المواطنة.

غير أن السعي لتحقيق هذا الاندماج المنصف لن يتأتى بالانعزالية والانغلاق ، بل بالمشاركة المتمثلة في الحـــضور الفعلي والفاعل في مختلف مجالات الحياة. ولعل ظروف حياة المسلمين الموضوعية قد فرضت عليهم في الماضي نوعا من الانعزال المادي؛ فرغم حضورهم الكبير يتمركز المسلمون خاصة في العواصم والمدن الصناعية، وتكـــاد أحيـــاؤهم تكون مغلقة، ومنفصلة عن مسار الحياة الاعتيادية لبقية المجتمع الأوروبي. فخمسي 2/5 مسلمي بريطانيا يعيشون مثلاً في منطقة لندن الكبرى، وثلث مسلمي فرنسا يعيشون في باريس وضواحيها، وثلث مسلمي ألمانيـــا يتمركـــزون في المنطقة الصناعية روهر (Ruhr) ويشكل المسلمون اليوم في مرسيليا أكثر من ٢٥% من سكانها ، و٢٠% من منطقة مالمو في السويد، و١٥% من العاصمة البلجيكية بروكسيل، ونفس النسبة في برمنجهام شمال بريطانيا، وفي العاصـــمة الفرنسية باريس، و١٠% من سكان لندن، وأمستردام، وروتردام، وأوسلو، وكوبنهاجن.

ومما لا شك فيه كذلك أن هناك أسبابا معنوية ساهمت بدورها في تكريس الانعزالية والانغلاق ، مثل ضـــبابية الرؤية بخصوص مستقبل المسلمين الأوائل في ديار الغرب، وتدني مستواهم التعليمي، وعدم إتقانهم للغة البلاد الـــتي كانوا يعيشون بها، ثم افتقارهم لحقوق المواطنة التي من شأنها أن تمكنهم من المشاركة في قضايا المجتمع.

غير أن الجيل الثاني والثالث ، وكذلك المهاجرون المتعلمون ، قد تجاوزوا هذه العوائق المعنوية ، حيـــث أنهـــم يعتبرون أنفسهم مواطنين مثل غيرهم ، إضافة إلى إتقانهم للغة بلاد إقامتهم ، وشروعهم في المطالبة بتمتعهم بحقـــوق المواطنة التي يتمتع بها غيرهم من المواطنين.

تقول الإحصاءات ، حسب مسح أجرته إحدى المؤسسات البحثية في عام ٢٠٠١ ، أن نسبة الحاملين للجنسية، أو المؤهلين للحصول عليها، في تزايد ، حيث أن ٦٠ % من المسلمين في كل من فرنسا والمملكة المتحدة (بريطانيـــا)

يحملون جنسية هذين البلدين. وفي ألمانيا تتراوح نسبة الحاملين للجنسية الألمانية بين ١٥ و٢٠%، في حين أن ١١% تقدموا بطلبات في هذا الشأن ، كما يخطط ٤٨% من المسلمين في ألمانيا إلى التقدم بطلبات الحصول على الجنـــسية؛ وتعني هذه الإحصائيات أن ٢,٤ مليوناً مسلم سيضافون إلى عدد الألمانيين الذين يحق لهم الانتخاب ؛ وهـــو الأمـــر نفسه الذي قد ينسحب على إيطاليا التي لا يحمل إلا ١٠% من مسلميها الجنسية الإيطالية.

وتقول آخر الإحصاءات الصادرة عن منظمة الإحصاء الأوروبية (يوروستات) إن ٥٠ ٠٠٠ تركـــي أصـــبحوا مواطنين أوروبيين في ٢٠٠٨- وكان ٥٥١٠٠ تركي قد حصلوا في ٢٠٠٧ على جنسية دول الاتحاد الأوروبي.

وتصدر المغاربة القائمة بحصول ٦٤ ٠٠٠ على هذه الجنسية في ٢٠٠٨.

وهكذا أصبح إجمالا ٧٠٧ ٠٠٠ شخص مواطنين جددا في دول الاتحاد الأوروبي سنة ٢٠٠٧ ، أما في ســـنة ٢٠٠٨ فلقد أدى قسم المواطنة ٦٩٦ ٠٠٠ شخص .

وفي بريطانيا أصبح ١٢٩ ٠٠٠ مواطنين بريطانيين وأوروبيين جددا سنة ٢٠٠٨. وكان المهاجرون مـــن الهنـــد وباكستان والعراق هم الأكثر حظا في الحصول على الجنسية البريطانية .

ومنحت فرنسا الجنسية سنة ٢٠٠٨ لـــ ١٣٧ ٠٠٠ شخص أغلبهم من المغرب والجزائر وتركيا .

وكشفت إحصاءات منح الجنسية لأشخاص من أفغانستان والعراق تغييرا في التوجهات حيـــث حـــصل ســـنة ٢٠٠٣ أكثر من ٨٠٠٠ أفغاني على جنسية الاتحاد الأوروبي ، وارتفع هذا الرقم إلى أكثر من ١٠ ٠٠٠ فرد بحلول ٢٠٠٨.

أما بالنسبة للعراقيين، فلقد حصل نحو١٢ ٠٠٠ شخص على جنسية الاتحاد الأوروبي في ٢٠٠٣ ، وتجاوز هذا الرقم ٢٠ ٠٠٠ شخص في ٢٠٠٨ – نقلا عن القدس العربي ٧-٧-٢٠١٠ –

وهكذا أضحت الظروف مهيأة أكثر للانخراط المسلمين في محيطهم الاجتماعي والمشاركة في مختلف فعالياته.

المشاركة ، مفهومها ومجالاتها

تعني المشاركة الحضور العملي والفاعل في مختلف مجالات الحياة ، للعمل على الترجمة الفعلية لمـــا تحقـــق مـــن مكاسب في مجال الاندماج، وللسعي إلى استكمال ما تبقى من مطالب.

مجالاتها : قبل تحديد مجالاتها ، لا بد من الإشارة إلى أن الانخراط في المشاركة يجب أن يكـــون عـــبر مخطـــط تدريجي يمنح الأولية لاحتياجات المسلمين الملحة.

من الواضح أن المشاركة السياسية تقع على رأس هذه المجالات ، لأنها تضع بين يدي الذي يملك سلطة تنفيذية أو تشريعية إمكانات كبيرة للفعل والتأثير في المجتمع. ومع ذلك لا زالت محدودة في أوساط المسلمين.

تقول الإحصاءات ، في استطلاع أجرته صحيفة لوفيجارو الفرنسية في مارس ٢٠٠٤ ، إن نسبة الشباب المسلم الذين يشاركون في الانتخابات لا تتجاوز ٣٧% من عددهم في فرنسا. وقد صرح نصف المستجوبين في بريطانيا أنهم لن يشاركوا في انتخابات مايو ٢٠٠٤. وتقر الدراسة بأن المسلمين إما غير ممثلين في المؤسسات أو أن حـــضورهم ضئيل جداً.

والسؤال الملح الذي يطرح في هذا المجال هو : هل من مصلحة المسلمين إنشاء حزب خـــاص بهـــم ، أم مـــن الأفضل لهم الانخراط في الأحزاب القائمة ؟

والرأي الراجح بهذا الخصوص يرى أن تشكيل المسلمين لحزب خاص بهم ، سيجعل منهم أقلية لن تتمكن مـــن الوصول إلى مواقع سياسية مؤثرة ، وبالتالي لن تحقق للمسلمين شيئا ملموسا ، أما انخراطهم في الأحـــزاب القويـــة القائمة، التي لها موقف إيجابي من الأجانب عموما ، ومن المسلمين بشكل خاص ، فسيمكنهم تحقيق الكـــثير مـــن المكاسب من خلال هذه الأحزاب .

بعض مجالات المشاركة الأخرى

نستخلص بعض مجالات المشاركة الأخرى من كلام للسيد جورجن نيلسون – أستاذ الدراســـات الإســـلامية ومدير مركز الدراسات حول الإسلام والعلاقات بين المسلمين والمسيحيين بجامعة برمنجهام – ، بالمملكة المتحدة، إذ يقول :

" لا تعني المشاركة السياسية مجرد السماح للمسلمين بمشاركة شكلية في الانتخابات؛ إنها أعمق من ذلك؛ إنها تعني بشكل أساسي القبول بحضور إسلامي في المجال العام، الذي يجب أن يشمل وسائل الإعلام الخاصة والعمومية، ويشمل كذلك مختلف مؤسسات المجتمع المدني، مع التأكيد على أهمية مجالس المدارس، والمجالس الإدارية، واللجـــان الاستشارية في قطاع الشرطة ومصالح الصحة .وتعني المشاركة السياسية تشجيع سياسة تشغيلية غير تمييزية، بشكل يمكن المسلمين من ولوج القطاع العمومي خاصة، وشغل المناصب الإدارية على المستوى المحلي والوطني، في ســـلك القضاء والقوات المسلحة ".

مجالات أخرى للمشاركة

– العمل الاجتماعي والخيري من خلال مؤسسات المجتمع المدني الذي يجب أن يكون موجهـــا لكافـــة أفـــراد المجتمع.

– العمل الفكري من خلال مراكز الدراسات والبحوث ، للعمل على تحليل الواقع المحلي والعـــالمي، وتقـــديم صورة قد لا تتطابق بالضرورة مع الصور التي تروجها مراكز البحوث التي تخدم فئات معينة.

– العمل الأدبي بلغة البلاد الذي يقدم الصورة المناسبة عن القيم الإسلامية والمعاني الإنسانية بشكل عام.

– العمل الفني من سينما وسرح وأغنية هادفة وغيرها ، الذي يقدم الرسالة الإسلامية والإنسانية في قالب فـــني يصل إلى قطاعات واسعة من الناس.

– العمل الاقتصادي ، لتوظيف القوة الاقتصادية للحصول على مكاسب سياسية واجتماعية.

– العمل التعليمي لتشكيل وعي الناشئة في الاتجاه المناسب، من خلال إنشاء مؤسسات تعليمية حرة من مختلف المستويات ، مفتوحة للجميع ، وتقدم تعليما ذا جودة عالية .

مقتضيات المشاركة :

– المقتضى النفسي ، حيث من المهم أن يشعر من يقدم على المشاركة في أي مجـــال مـــن المجـــالات بالأهميـــة الاستراتيجية الذي يكتسيها عمله، وبأن ذلك يخدم المجتمع بصفة عامة ، والمسلمين بصفة خاصة ؛ وهـــذا الـــشعور بأهمية المشاركة هو الذي يجعل المشارك يتفانى في عمله ويعطيه أقصى ما عنده.

– المقتضى التربوي : وهذا الشعور النفسي لا يتأتى إلا من خلال التربية على الشعور بالانتماء للبلاد التي يعيشون فيها ، وعلى الشعور بضرورة المشاركة في مختلف مجالات الحياة فيها.

– مقتضى الكفاءة بحيث لن يتصدى لأي مجال من مجالات المشاركة إلا من يتقن الأداء فيه ، "إن الله يحـــب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه" ،

– مقتضى العمل المؤسسي لأن العمل الفردي لا يكتمل دوره في المشاركة إلا من خلال مؤسسة توجهه وترسم خطاه.

– المقتضى المعرفي والعلمي ، ويتمثل في معرفة الثقافة والعقلية الغربيتين ، لاكتشاف المداخل النفسية والعقلية عند الإنسان الغربي التي تيسر المشاركة ؛ كما تحتاج إلى فهم نظرة الغرب لمختلف قضايا المسلمين (قضية المرأة والحجاب والعنف والتخلف) لإيجاد السبل المناسبة للتعامل مع مثل هذه القضايا . وهذا يستدعي نوعا من الاستغراب والـــذي

لن يكون مثل الاستشراق الذي بنى في منتصف القرن الثامن عشر ، نظرة للإسلام والمسلمين تخللتها الكـــثير مـــن الصور النمطية والأحكام المسبقة المجحفة والمشوِهة ، حتى يهيئ الأرضية للاحتلال بلاد المسلمين. بـــل نحتـــاج إلى استغراب موضوعي يهدف، من خلال المعرفة العلمية المجردة ، إلى فهم هذا الغرب كما هو حقيقة ، وليس كما نريد له أن يكون ، حتى يكون التعامل معه على بينة ومعرفة.

ثم لا بد من معرفة كذلك الدواعي الحقيقة التي تثير وتؤجج قضية التخويف من الإسلام، والتي قد تكون خارجية مثل القضية الفلسطينية واحتلال العراق والحرب في أفغانستان ، لمواجهتها بالشكل المناسب. كما يجب أن نعلم أنـــه عندما تسوء الأحوال الاقتصادية ويستعصي على المسؤولين حلها، تتم إثارة إشكاليات جزئية، تسمح للإعلام بمـــلء صفحاته وإلهاء قرائه ، بإبعادهم عن المشاكل الحقيقية. وغالبا ما يكون الإسلام والمسلمون مادة لهذه الإثارات.

ومن المقتضيات المعرفية والفكرية أن نتعرف على صورة المسلمين في ثقافة الغرب ، وكيف تشكلت عبر التاريخ ، فرفض الغرب للإسلام والحذر منه بصفته دين ومنظومة قيم ليس وليد اليوم . فمنذ الحروب الصليبية ، مروراً ببدايـــة الاستعمار الأوروبي ، مثل تشويه المجتمعات والحضارة الإسلامية عنصرا أساسيا في إيديولوجية المحتل.

– مقتضى امتلاك لغة بلد الإقامة لحسن التواصل والمشاركة مع المحيط.

– مقتضى الإطلاع على قوانين البلاد لمعرفة الحقوق والواجبات المتعلقة بأي جانب من جوانب المشاركة.

– الجانب الفقهي معرفة وتطويرا.

محاذير المشاركة

غير أن للمشاركة مترلقاتها ومحاذيرها المتمثلة أساساً في الاستدراج الذي قد يتعرض له من تألق في مجال معين من مجالات المشاركة ، لدفعه إلى التخلي رويداً رويدا عن رسالته الأصلية المتمثلة في خدمة الاندماج المنصف ، ليتحـــول لقاء مكاسب شخصية – كما حصل على مع كثير من المتألقين سياسيا أو اجتماعيـــا – إلى مـــن يتـــبنى أطروحـــة المعاكسين للاندماج الإيجابي المنصف.

وقد يستدرج الذي يبرز في مجال من المجالات إلى خوض صراعات جزئية أو جانبية تحرفه أن وجهته الأصلية .

أما المترلق الثاني فيتمثل في عدم كفاءة المشارك التي قد تجعله – جهلا للقانون أو لخلل في صحة ما يستند إليه من معلومات – يقدم على أعمال أو الإدلاء بتصريحات خاطئة ، قد تحسب عليه وعلى المسلمين ، وتتخذ ذريعة لتشويه صورتهم والتشكيك في مشاركتهم.

من المشاركة إلى الإشراك

وحرصا على مزيد من تبديد المخاوف والشكوك والظنون عند الآخرين ، يجب أن لا يقتصر المـــسلمون علـــى المشاركة كما عرضناها ، بل يجب أن يعملوا كذلك على إشراك المواطنين الآخرين في أنشطة المسلمين ، بـــدعوتهم لحضورها أو الإسهام في فعاليتها.